المجتمع العربى وتحديات العولمه

رؤية سوسيولوجية

صراع الحضارات وحوار الثقافات نموذجا

خضر عبد العظيم ابو قوره*

توطئة

عن القضية والمشكلة البحثية

تحاول هذه الدراسة ان تستثمر التراث المعرفى لعلم اجتماع المعرفة ومعطياته فيا يدور حولنا من تيارات وأفكار ورؤى وسياسات تحمل فى طياتها وفى بنيتها الذاتيه عناصر دفع دينامية تؤثر فى وجودنا بل فى شكل مستقبلنا حيث أزعم أنه لا أحد فى عالمنا العربى الكبير يهون أو يستهين من قدر الأحداث والقضايا والتحولات التى نجحت فى العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين المنصرم والأحداث الجسام التى حملتها السنوات الثلاث الاخيرة من النوازل والوعود خيرها وشرها.

لايستطيع احد الانشغال عما حدث ويحدث أو التهوين من شأنه أو المرور عليه مر الكرام.

إن مجتمعنا العربى كله من غربه لشرقه ومن شماله لجنوبه قد أصاب وجوده الزمنى اختلال كبير فى التوازن كما أن المخاطر التى تهب عليه من أعاصير العولمة ومخاطرها تهدده فى العمق ، نعم تهدد وجودنا الذاتى والأخلاقى والحضارى والوجدانى .

تحاول هذه الدراسة البحثية تقديم إسهام متواضع بانارة شمعه الى جانب شموع أخرى كثيرة يقوم بها غيرى تسمح بإنارة طريقنا الى الصواب وتوجيه رؤيتنا إلى طرق أجدى وأقوم على الأقل

*أ.د. خضر عبد العظيم خضر أبو قوره - استاذ علم الاجتماع- المستشار بمعهد التخطيط القومى.

وأكثر جدارة بالحاضر الذى نتقلب فى مخاطره الداهمة وصعوباته المعقدة وأكثر تطلعا الى المستقبل الذى تشير دلالات كثيرة إلى أنه لايعدنا الا باشياء كثيرة مما نخاف ونخشى.

تتساءل هذه الورقة البحثية لماذا كل هذا الاهتمام بالعولمة ؟ ولماذا كل هذا الانشغال بها ؟ وهل نملك نحن العرب إزاءها الخيرة من أمرنا بالقبول أو الرفض بالدخول أو الخروج ، بالتحصن بخصوصيتنا ومواريثنا الحضارية أو الانسلاخ من جلودنا تمهيدا للذوبان والانصهار ؟

- ونتساءل أيضا هل نحن العرب "الآن " نبدو اليوم كالايتام على مائدة اللئام وهو وضع اختاره لنا غيرنا "الآخر" ودور حدده لنا سوانا؟ وهل جاءت لحظة المراجعة النقدية الواعية للعقل العربى والثقافة العربية لكى تستوعب جيدا كل ما يدور حولها ويجرى ؟

هل نعيش زماننا نحن - أقصد زماننا العربى بمشكلاته ومناهج تفكيره وقضاياه وأجندته أم أننا على العكس نعيش زمن الآخر " الغرب " ومشكلاته ؟

- هل توقفنا كعرب ومسلمين عن إنتاج العلم والابداع الذى استمر فى القرنين "السادس والسابع الهجريين " الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ثم نمنا نومه أهل الكهف وحين استيقظنا عشنا فى حيرة ردود الفعل لاندرى ماذا نفعل به ؟ هل نركب قطار الحضارة من آخر نقطة وصل إليها؟ وهل التفاوت التاريخى حقيقة أم مجاز؟

إن مشكلات الزمان الغربى وقضاياه لاعلاقة لها بمشكلاتنا نحن العرب وقضايانا ، فلماذا نركز اهتمامنا على أقطارهم وقضاياهم ؟

ولعلنا نستطرد فى التساؤل . لماذا تعثرنا فى استخدام مناهج علم اجتماع المعرفة فى الربط الوثيق بين الإنتاج الفكرى والبناء الاجتماعى ؟ وإذا كانت مشاكل الغرب ليست مشاكلنا وهذا صحيح إلا أن المنهجيات التى يستخدمونها لحل مشاكلهم تهمنا ويمكن لنا أن نستفيد منها .

إن القضايا الخاصة بالعولمة وسقوط الحتمية التاريخية ، وانفتاح التاريخ الانسانى ، واتساع دائرة الاختيار أمام البشر ، ومجابهة تلوث البيئة ليست مشكلات الفرد الغربى فقط ولكنها مشكلة الإنسان فى كل مكان ، ودراسة هذه المشكلات بأقصى درجة من الدقة ومن خلال المنهج النقدى ضرورة أساسية ليس فقط لكى نتابع ونستفيد مما يجرى حولنا ولكن أيضا لأنها يمكن أن تساعدنا فى التصدى لمشكلاتنا فى مجتمعنا العربى.

هل يمكن للعقل العربى أن يدرك جيدا أن عليه أن يمعن النظر فيما حوله من أحداث ، بل وعليه أن يسبق الأحداث وأن يقطع الطريق على من يريدون عزله وحصاره أو وضعه دائما فى دائرة رد الفعل وحرمانه من الفعل ؟ فعلى الرغم مما يبدو على السطح من ضعف العرب والمسلمين . وأن الأكلة يتداعون عليهم كما يتداعى الأكلة على قصعتهم حسبما ورد فى الجديث النبوى الشريف . إلا أن المتأمل بعمق يدرك أن العرب والمسلمين باعتراف أعدائهم قبل أصدقائهم إما باليقين أو الظن الراجح لديهم الكثير والكثير من مصادر القوة الظاهرة والباطنة بالرغم مما لحق بهم من عوامل الضعف والوهن ومايحيط بهم من مخاطر وفى طليعتها اعاصير العولمة . وما هو ياترى حجم التحديات التى تحملها تلك الأعاصير ؟

(١) العولمة ظاهرة مركبة ذات انعكاسات متباينة

من نوافل القول إن العالم المعاصر قد تعرض لظاهرة مركبة اجتاحت قاراته الخمس خلال العقد الأخير من القرن العشرين وهى مايعرف بالعولمة . وغدت من الموضوعات الرئيسية التى تثير نقاشا فى العالم أجمع وفى عالمنا العربى. وإذا كانت الظاهرة قد ارتبطت فى أطوارها الأولى بعالم المال والاقتصاد والتجارة ثم ما لبثت رياحها تتجه صوب عالم الاجتماع والثقافة .

وقد استقبل المجال المعرفى العربى الظاهرة بمواقف متباينة المقاصد متعددة الاتجاهات . فهناك من رحب بها ودعا لاتخاذ الاستعدادات لاستقبالها وفتح الأبواب والنوافذ لتدخل من أيهما شاءت. وهناك من كان حذرا - ولايزال - داعيا إلى الشك والتحذير من شرك الوقوع فى شباكها وتوجيه سهام النقد إليها باعتبارها مرحلة متقدمة من مراحل الهيمنه العالمية من قبل بعض الدول القابضة على مجريات النظام الاقتصادى العالمى.

وهناك من يرى فيها تفكيكا للعالم العربى من حيث إن العولمة تنتقص من سلطات الدولة ككل. فالتغير التكنولوجى المتسارع وتدفق السلع والمعلومات والأفراد والشركات عبر الحدود سيضع قيودا على سيادة كل دولة داخل حدودها [١]. كما ان سعى قوى العولمة لتحقيق حرية التجارة وحرية تدفق رءوس الأموال وخروجها يفرض شروطا ثلاثة على العالم العربى فى سياق منظومة التكيف مع العولمة وهى المزيد من الخصخصة ، وحرية السوق الداخلى ، وتعميق ثقافة السوق ولما كانت هذه الشروط تتم بين أطراف غير متكافئة بين الغرب المتقدم والدول العربية الأقل تقدما فإن ذلك سوف

يكرس التخلف والتبعية [٢].

وهناك من يرى أنها طور من أطوار التطور الحضارى يصبح فيه مصير الإنسانية نازعا إلى التوحد ليس بمعنى التجانس والتساوى بين بلدان العالم ولكن بدرجة عالية من التفاعل بين مناطق ومجتمعات بشرية مختلفة مما ينتج عنه ازدياد درجة التأثير بمعنى التعاون المتبادل.

بينما يرى آخرون أنها تمثل حقبة للتحول الرأسمالى العميق للعالم أجمع فى ظل هيمنة دول المركز وبقيادتها وتحت سيطرتها وفى ظل سيادة نظام عالمى للتبادل غير المتكافئ .

وفريق آخر يرى فى العولمة الوجه الجديد لهيمنة الرأسمالية على العالم تحت الزعامة أحادية البعد للولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها الوريث للمركزية الأوروبية التى سادت وسيطرت فى القرنين الماضيين.

وآخرون يرون فى العولمة تجميع دول وشركات عملاقة ومنظمات وهيئات تحت الهيمنة الأمريكية، لاجبار دول وشعوب على الانطواء تحت جناحها وصولا الى التاريخ الكونى المعولم أى الأمركة الاقتصادية ثم الثقافية.

إن العولمة ظاهرة مركبة لها أشكال متعددةاقتصادية وسياسية وثقافية وإن كانت ظاهرة قديمة قدم التاريخ عندما كانت تتصدر حضارة ماباقى الحضارات الأخرى وتقود العالم كما حدث فى الشرق القديم " الصين "، الهند ، فارس، بلاد ما بين النهرين، مصر القديمة ثم ما قامت به الحضارة العربية الإسلامية كحلقة وصل بين حضارات الشرق وحضارات الغرب عندما كانت مركزا للعالم ومصدرا للعلم، تنقل ابداعاتها من العربية الى اللاتينية والعبرية وقام بذلك مجموعة من الغرب القديم واليونان والرومان ثم الغرب الحديث.

إلا أن انتهاء الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفيتى ١٩٨٩ أدى إلى هيمنة القطبية الاحادية الامريكية فى العلاقات الدولية وأدى ذلك إلى ربط العولمة بالتصورات الاستراتيجية للولايات المتحدة الامريكية .

لذلك فإن القسمات الواضحة للعولمة جعلها تختلط الى حد كبير بالاهداف الاستراتيجية الامريكية على مستويات أربعة.

الأول اقتصادى :

ويهدف إلى الدخول نحو اقتصاد السوق وتحجيم دور الدولة فى التدخل فى النشاط الاقتصادى ورفع الحواجز والحدود أمام رأس المال . وتعتبر الشركات متعددة الجنسيات من أهم مؤسسات الرأسمال العالمى وبجانبها المؤسسات المالية الدولية مثل البنك الدولى وصندوق النقد الدولى .

الثانى سياسى:

ويهدف إلى نشر مفاهيم الليبرالية السياسية والديموقراطية وإنهاء السلطات الشمولية فى الحكم وتبنى التعددية السياسية والالتزام باحترام حقوق الانسان والتركيز على حقوق المرأة وحقوق الأقليات وحقوق التدخل الدولى الانسانى ...الخ.

الثالث ثقافى :

ويعنى خلق مكون ثقافى عالمى جديد وتقديمه كنموذج ثقافى وتعميم قيمه ومعاييره على العالم أجمع يتوجب تبنيه وتقليده وهذا المفهوم ينبغى أن تسخر وسائل وأجهزة الاعلام وتقنياتها الحديثة فى نقله الى كافة مجتمعات العالم .

ونتيجه لانفراد الولايات المتحدة الامريكية كقطب مهيمن فى النظام الدولى الجديد بعد تفكك الاتحاد السوفيتى . فإن العولمة باختصار ماهى إلا هيمنه الثقافة والقيم الامريكية على العالم وفرضها كنموذج كونى شكلا ومضمونا أمريكين.

الرابع اجتماعى :

وهو أسوأ مظهر من مظاهر العولمة حيث إن الواقع الاجتماعى الذى تعيشه الرأسمالية الجديدة فى الغرب والتى بشر دعاة العولمة بتحقيق نسب عالية فى التنمية ، والقضاء على البطالة وتحسين المستوى المعيشى يكذب ذلك الادعاء فقد تدهورت القوة الشرائية لكثير من الشرائح الاجتماعية وازدادت نسب البطالة وارتفعت معدلات الفقر وظهر الكثير من الاصوات فى الغرب الاوروبى يندد بالعولمة .

لقد كذب هؤلاء الذين بشروا بتحويل تكاليف الحرب الباردة الى مساعدة البلدان الفقيرة فى آسيا وإفريقيا وأمريكيا اللاتينية فإن شيئا من ذلك لم يحدث .

كما أن الاقتصاد المعولم لم يوظف اجتماعيا . بل عمد إلى نسف كثير من المكاسب الاجتماعية والنوعية ورمى بفئات اجتماعية عديدة كانت تحظى بعمل دائم ومستوى معيشى مناسب إلى هوة البطالة والفقر ، بل إن أكثر النتائج السلبية اجتماعيا فى خطورته هو إضعاف الطبقة الوسطى فى البلدان النامية وهى العمود الفقرى للبناء الاجتماعى والنواة الصلبة للمجتمع عامة والبلدان النامية خاصة .

أما دعوى ارتباط العولمة بالتحرر والانصاف - فذلك قول حق يراد به باطل لأن هذا التحرر سيكون مقصورا على شريحه محددة من الناس الذين سوف يحتكرون جزءا من الموارد لصالحهم ويفرضون على الآخرين القبول بشروط متواضعه للحياة حتى داخل البلدان الصناعية المتقدمة وسوف يزداد النزوع الى الاستقطاب الاجتماعى والتفاوت العميق فى توزيع الثروات المادية والمعنوية على حد سواء . واذا كان التحدى الذي تطرحه العولمة ليس بالجديد فلقد عرفه العالم منذ الثورة الصناعية وحقبة السيطرة الاستعمارية . إلا أن الخطر الجديد فى العولمة أنها تعنى التشجيع على الاستقالة السياسية للدول الوطنية خاصة فى موضوع مواجهة تحديات العولمة واستحقاقاتها . وعلى هذا فإن واجبنا نحن العرب فى مقاومة الهيمنة التى تحملها العولمة ألا نكتفى بالرفض الايدولوجى لمفهومها ولكن من خلال بناء الشروط الموضوعية التى تسمح بالتحكم بآلياتها وتقنياتها ووضع اليد على جزء مناسب من رأسمالها المادى والأدبى والعلمى والادارى .

نحن العرب علينا أن نفهم ويعمق آليات الهيمنة الجديدة التى تحملها العولمة وأن نسعى بكل إمكاناتنا وهى كثيرة إلى تغيير وتعديل أثرها علينا عن طريق نقدها نقدا سياسيا واعيا من أجل تفكيك آليات هذه الهيمنة . على النخب السياسية والاجتماعية أن تدرك جيدا أن العولمة لن تفعل كما كانت تفعل الامبريالية بعد حقبة الاستعمار باستخدام القوة العسكرية لكنها تستخدم قفازات الحرير والجزرة والعصا من خلال تفكيك البناء وإعادة ترتيبه وتركيبه ، والسيطرة على مراكز القرار والتوجيه . أى القدرة على القيادة من داخل النظام الواحد نفسه وربط ذلك التحكم بما يسمونه القرار العالمى المرتبط عنكبوتيا بشبكات الاقتصاد والمال وشبكات المعلومات والاعلام .

التفكيك كيف ؟

إن العولمة تراهن على فصل النخب عن بنائها الاجتماعى الكبير أو البناء الأم عن طريق بناء

نمط متميز لحياتها وتفكيرها يسمح بفصلها عن جذورها ودمجها مباشرة فى دائرة مايسمى بعوله الثقافة فى دائرة الاستهلاك الخاص بها أى أنها تقوم على إيجاد رأسمال ثقافى رمزى مستقل وثقافة نوعية للنخبة العالمية الجديدة تربط أفرادها . لذلك أصبحت الجبهة الرئيسة فى حرب السيطرة العالمية للعولمة ، هى جبهة المواجهة الثقافية الهادفة الى زعزعة ثقافة الأصول وخلخلة الثوابت بدعوى ملاءمة العصر أو الحداثة بهدف التخفيض من قيمة الثقافات المنافسة ودفع النخب إلى الابتعاد عن الأصول أو التنصل منها بحجة الانتماء الى ثقافة العولمة الشاملة الجديدة.

يأتى بعد ذلك ماهو أخطر ، أو ماهو أدهى وأمر ألا وهو التمييز الواضح بين ثقافة النخبة وثقافة المجتمع الواسع العريض أو مايعرف بثقافة الجمهور بدعوى إقامة شبكات التضامن والتعاون والتنافس فيما بين النخب على مستوى العالم أجمع.

وشيئا فشيئا تنزع النخب من ثقافتها الوطنية بدعوى الاندماج فى ثقافة النخبة العالمية للعولمة.

وهنا نعود مرة أخرى إلى علم الانثروبولوجيا الثقافية وعلم اجتماع المعرفة لفهم الآليات التى تحكم صراع الثقافات أو تفاعلها ونقول إن مفهوم التثاقف أو المثاقفة ومفهوم الاستلاب الذى ساد فى حقبة الاستعمار القديم وخاصة الاستعمار الفرنسى والبريطانى وما أفرزته فى دراسات للمستشرقين عن الهيمنة الثقافية والامبريالية الثقافية ونتساءل أليست العولمة فى علاقتها بالثقافات الوطنية ثوبا جديدا أو نموذجا للهيمنه تولد من صراع التكتلات الرأسمالية الكبرى على الهيمنة العالمية؟

إننا إذا استخدمنا آليات المنهج لكل من علم اجتماع المعرفة والانثروبولوجيا الثقافية .

نقول وفق ماجاء فى الفقرات السابقة إن العولمة ستكون أداة ليس فقط لسيطرة ثقافة على أخرى ولكن سوف تكون طريقا لإنشاء نمط جديد من السيطرة الثقافية ولن يكون للثقافات الاخرى أى دور فاعل أو مستقل إلا إذا أدرك أصحاب تلك الثقافات طبيعة ودوافع هذا النمط العولمى الجديد فى السيطرة الثقافية وآلياته واهدافه.

ليس هذا فقط بل علينا نحن العرب التنبه والحذر لبلورة الاستراتيجيات المناسبة التى تسمح لثقافتنا أن تبقى على مستوى المشاركة الفاعلة والمتعادلة مع ثقافات أخرى فى نفس ظروفنا (الهندية، الصينية ، الايرانية ، مجموعة الدول الاسلامية فى آسيا وإفريقيا) وهذا دور وواجب كل

من منظمة المؤتمر الاسلامى وجامعة الدول العربية وغيرهما من المنظمات الاقليمية . وذلك حتى لاتتحول هذه الثقافات الى مجرد ثقافات هوية لمجموعة بشرية .

وهذا يتطلب التعمق فى فهم آليات هذه السيطرة الثقافية . وعلينا أن ندرك أنه لاتوجد مجتمعات مستقلة أى ذات إرادة ووعى مستقلين ينجم عنهما ممارسة تاريخية واجتماعية وسياسية مستقلة من دون موارد ثقافية متميزة . فإذا فقد المجتمع أو عدة مجتمعات (العالم العربى مثلا) تميزها الثقافى أو ينابيعها وموارها الثقافية الخاصة التى تتميز بها عن غيرها فقدت هويتها المستقلة واندمجت فى غيرها من خلال تمثل ثقافة اخرى أو الخضوع العملى لها تحولت إلى متاحف التاريخ.

(٢) العولمة بين صدام الحضارات وحوار الثقافات

لن نحاول فى هذا الحيز الضيق الدخول فى تفاصيل التعريفات الانثروبولوجية الكثيرة لمفهوم الثقافة ، لكننا نركز على الاتجاه العلمى الدقيق الذى تبناه كل من علم اجتماع المعرفة والانثروبولوجيا الثقافية باعتبار المصطلح يدل على الفضاء التواصلى الموجب بمعنى ادراك البشر لمواقعهم وأنماط العلاقات التى يقيمونها فيما بينهم ويدخل فى ذلك المركب المتجانس من الذكريات والتصورات والقيم والتعبيرات والتطلعات وكل مايتصل بالعقائد حيث يمثل الدين عنصرا محوريا فى الثقافة بأبعادها المختلفة معرفيا وإجرائيا . وهذا المزيج المركب هو الذى يعطى لجماعة ما أو مجتمع معين هويته الحضارية . ويميل باحثو العلوم الانسانية (الاجتماع، الانثروبولوجيا ، التربية ، علم النفس) إلى التمييز بين مصطلح الثقافة بالمعنى الواسع ومصطلح الحضارة الذى يحمل دلاله تقويمية ضمنية (أى الحضارة كمستوى راق فى السلوك نابع من ثقافة ما).

ويتولد عن ذلك نتيجة أنه لاتوجد ثقافة عالمية واحدة ولن توجد يوما ما . أما الذى وجد فى الماضى ويوجد فى الحاضر وسوف يوجد فى المستقبل فهو ثقافات متنوعة تعمل كلها فى مجتمع معين من المجتمعات لكل منها خصوصيته ، والتفاعل داخل كل ثقافة يجرى بصورة تلقائية، أو موجهة بتدخل من أهلها للحفاظ على كيانها ومكوناتها الخاصة . ينطبق هذا على الثقافة اليونانية والعربية والصينية والهندية واليابانية والفرنسية والانجليزية والامريكية ..الخ.

من هذه الثقافات مايميل إلى العزلة والانغلاق ومنها مايسعى الى الانتشار والتوسع ومنها ماينعزل حينا وينتشر آخر ومنها مايميل إلى التعاون والتآلف ومنها مايجنح الى الصراع والصدام .

وتعمل الثقافة وتتحرك فى إطار دوائر ثلاث متداخله . الفرد داخل المجموعة ، والجماعة داخل المجتمع والمجتمع داخل عدد من المجتمعات ومن الأمة ومن ثم كانت هناك هوية ثقافية للفرد والجماعة والمجتمع والعلاقة بينهم دائما فى مد وجزر دائمين بتغير مدى كل منهما بحسب الظروف وحالات التضامن أو التنافس أو الصراع.

فى هذا السياق ظهرت مقولة صمويل هنتنجتون "الصدام الثقافى فى مقال صدر فى صيف ١٩٩٣ فى مجلة الشئون الخارجية الامريكية ثم تطورت المقالة بعد ذلك الى كتاب نشر عام ١٩٩٦ تحت عنوان "صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمى"[٣].

حيث يرى أن المصدر الجوهرى للصراع فى العالم الجديد لن يكون فى أساسه ايديولوجيا أو اقتصاديا أو سياسيا ولكن المصدر المهيمن للصراع سوف يكون ثقافيا.

ويضيف صمويل هنتنجتون أن الدول والأمم ستكون مسرحا للنزاع والصراع وسوف يسيطر الصدام بين الحضارات على السياسات الدولية ، ذلك أن الخطوط الفاصلة بين الحضارات ستكون هى خطوط المعارك فى المستقبل ولايهتم هنتنجتون كثيرا بالتحديد المنهجى لمقولة حضارة وإنما يستخدمها وفق الفهم الاجرائى المتداول باعتبارها أعلى تجمع ثقافى للبشر فى مجتمعاتهم وأوسع مستوى للهوية الثقافية للمجتمع.

والحضارات الرئيسية الفاعلة فى ميدان الصراع فى العالم المعاصر هى سبع أو ثمانى هى الغربية ، والاسلامية والهندية والكونفوشيوسية ، والسلافية الارثوذكسية والأمريكية اللاتينية ولربما الافريقية.

أما مسببات الصراع الحضارى الذى يتوقعه فيجعلها هنتنجتون فى الفروق الجوهرية بين الحضارات من حيث اللغة والتاريخ والثقافة والتقاليد ثم يركز بصفة خاصة على الدين.

مايسميه بأثر التحديث الاقتصادى والاجتماعى على الهوية المحلية مما يفرز هاجس تحصين الهوية الثقافية ضد الاختراق الاجنبى ويذكر تحديدا مايسميه بالحركات الاصولية[٤].

مايسميه بازدواجية النموذج الغربى الذى يمثل فى نظره نموذجا يحتذى من جانب ، وخصما ينبغى محاربته وخاصة قيمه الاجتماعية الثقافية . ثم تزايد النزعة الاقليمية الاقتصادية وتحولها الى تكتلات ثقافية .

والغريب أن يركز على تزايد فرص احتمالات الصدام بين الغرب والاسلام مستعرضا تاريخ العداء بين الحضارتين المستمر منذ مايزيد على ١٣٠٠ عام بدءاً بالحروب الصليبية وصولا الى الاستعمار الحديث بمختلف اشكاله والعجيب أنه يركز على مايسميه ارهاب المجموعات الاصولية ويستطرد أن الصراع بين الغرب والاسلام ليس مرجحا ان ينحسر بل قد يصبح أكثر خطرا.

ويرى هنتنجتون أن أسباب المواجهة الحتمية بين الحضارتين الاسلامية والغربية يرجع الى الاسباب التالية من وجهة نظره:

- اطراد زيادة السكان المسلمين بصفة عامة .
- الصحوة الاسلامية وزيادة مظاهر رفض الثقافة الغربية.
- زيادة النفوذ العسكرى والثقافى الغربي فى كثير من البلدان الاسلامية .
- سقوط الشيوعية ونهاية الخطر الذى كان يمثله الاتحاد السوفيتيى.

ويستطرد صمويل هنتنجتون فى تحليله الى أن البلدان الاسلامية تسير نحو الالتصاق بعقيدتها الدينية وشرائعها اكثر من ذى قبل وأن مايسميه بظاهرة العودة للدين لدى عامة الناس والبسطاء منهم وهم الشريحة العريضة والأكثر عددا تزداد يوما بعد يوم مما يشير إلى الرغبة فى تأكيد الذات وتحصين الهوية فى مقابل أوضاع اقتصادية صعبة وتزداد سوءا فى أكثر البلدان . ثم يستطرد قائلا بأن هذه الظاهرة تولّدْ فى الغرب (الولايات المتحدة الامريكية وأوروبا الغربية) رد فعل معاكس(٥).

فهذه البلدان وإن كانت تدعى العلمانية إلا أنها فى الحقيقة تحاول استعادة اصولها المسيحية لمواجهة التحدى الاسلامى على حد تعبيره.

المؤسف أن صمويل هنتنجتون يقدم توقعاته التى تتسم بالخطورة والعنصرية بل والمغالطة فيقول إن الصراع قادم بين الحضارة الغربية المسيحية بكل مكوناتها والتحالف الاسلامى الكونفوشى. ونتساءل هل يوجد هذا التحالف إلا فى داخل رأس صاحب صدام الحضارات الذى يستطرد قائلا إن: الحضارتين الاسلامية والكونفوشية سيهددان مصالح وأمن الغرب وإذا عرفنا أن هنتنجتون (مؤلف كتاب صدام الحضارات) قريب من مراكز صنع القرار الامريكى وكان واحدا من كبار المسئولين السابقين عن التخطيط فى مجلس الأمن القومى الامريكى كما أنه رئيس الجمعية الامريكية للعلوم

السياسية لأدركنا خطورة ما يحمله كتابه هذا من أفكار ورؤى.

فكما جاء فى بعض الدراسات التى تعرضت بتحليل ونقد مقولة صمويل هنتنجتون ان الغرض من نظرية الصدام الثقافى لايخرج على نطاق السعى لادارة الازمات فى كوكب الفقراء الذى تنفجر فيه الديموجرافيا والثقافات التى يمتزج فيها الدينى بالسياسى بالاجتماعى(٦).

إذا تركنا قليلا أزمة صمويل هنتنجتون فى صدام الحضارات وانتقلنا الى ما سبقها وهو ماطرحه الباحث اليابانى الاصل الامريكى الجنسية فرنسيس فوكومايا قائلا "إن القرن الذى بدأ وكله ثقة بالنفس والانتصار المطلق لما يسميه بالديموقراطية الليبرالية الغربية فى أوروبا والولايات المتحدة الامريكية وهو يقترب من الافول من حيث بدأ مرة اخرى ، ليس إلا نهاية الايديولوجية أو الانقسام بين الرأسمالية والاشتراكية كما كان متوقعا من قبل ولكن الى الانتصار المحقق لليبرالية السياسية والاقتصادية ويستطرد بأن انتصار الغرب لهو دليل على استنزاف وفشل البدائل التى تم طرحها امام الليبرالية الغربية(٧).

ويؤكد فوكوياما للايديولوجية الجديدة للعولمة على عدم وجود طريق بديل يسلكه العالم الخارجى خارج المنظومة المعرفية الغربية (الولايات المتحدة الامريكية وأوروبا الغربية).

والباحث المدقق من حقه بل من واجبه ان يتساءل لماذا توارت فكرة فوكوياما عن نهاية التاريخ بسرعة واختفت من دوائر الاهتمام ؟ هل يرجع ذلك الى كون مركز صمويل هنتنجتون صاحب صدام الحضارات اقوى من فوكوياما صاحب (نهاية التاريخ)(٨)؟. أم أن أطروحه صدام الحضارات أكثر نفعا لتيار العولمة الجديد الذى هو أمركة جديدة تتستر تحت رداء العولمة على حد تعبير عالم الاجتماع الفرنسى بيير بورديبه؟ وليتها امركه تراعى الحق والعدل والحرية والمساواة ولكنها امركه ظالمة طاغية تعمل لصالح تحالف مجمع الصناعات العسكرية والشركات العملاقة ذات السطوة الاقتصادية ذلك التحالف الذى حذر منه وبقوة وعلانية الرئيس الامريكى السابق الراحل دوايت ايزنهاور فى الايام الاخيرة من رئاسته حين حذر من خطورة هذا التحالف على الولايات المتحدة الامريكية نفسها والسلام فى العالم أجمع وكأنه كان يستشرف المستقبل.

إن فكرة نهاية التاريخ تتحدث عن الماضى وهى تبعث على الاطمئنان على مستقبل الولايات المتحدة الامريكية من حيث كونها تؤكد على الانتصار النهائى للبرالية الغربية الشىء الذى يقدم

حججا للكثيرين داخل الولايات المتحدة الامريكية وخارجها عن عدم جدوى تخصيص مبالغ هائلة للدفاع والصناعات العسكرية فى ميزانية الولايات المتحدة يمكن أن يوجه جزء كبير منها للتعليم والصحة والرعاية الاجتماعية.

أما أطروحة صدام الحضارات فهى تتحدث عن المستقبل وتنذر بخطر المواجهة والحرب وتدعو صراحة الى الاستعداد للدفاع عما تسميه النموذج الحضارى الامريكى والمصالح التى يقوم عليها ذلك النموذج.

وسرعان ما أخذت وسائل الاعلام الامريكية مهمة الترويج لأطروحة صدام الحضارات وكذلك بعض الأوساط الجامعية ومراكز الدراسات الاستراتيجية فى الولايات المتحدة وأوروبا الغربية وخارجها بطريقة لاتتناسب مع حجم مقال فى صحيفة دفعت بصاحبها الى الانتقال بها من حجم مقال فى مجلة الى كتاب سارت به قوافل الاعلام الامريكية وغيرها[٩].

ماجرى أكبر وأخطر كثيرا مما نرى . كيف؟؟

وكان المسكوت عنه فى القضية والكتاب وأخطر من المتحدث عنه كما جاء فى تحليل بورديبه . ويدلل على ذلك قول صمويل هنتنجتون نفسه من خلال سلسلة محاوراته على القنوات التليفزيونيه والمجلات والجرائد والندوات بلا مواراة بأن الحرب الباردة الحضارية بين الغرب والاسلام ستحل محل الحرب الباردة التى كانت مستعرة الأدوار بين الغرب والشيوعية عامة والاتحاد السوفيتى السابق خاصة.

كان من المفروض وفق منطق العلم السياسى والاجتماعى والاقتصادى أن ينشغل الناس الاكاديميون والكتاب والادباء والصحفيون وغيرهم بما عرف بالبريسترويكا أو إعادة البناء التى قادها الرئيس السوفيتى الاخير ميخائيل جورباتشوف والتى قدمها فى كتاب من تأليفه يحمل نفس العنوان حاول فيه تقديم بناء نظرى . نقول كان مفروضا ومتوقعا ان يكون سقوط الشيوعية ومعها الماركسية التى شغلت العالم أكثر من ستين عاما ثم فشل مشروع جورباتشوف فى إعادة البناء هو الذى سيشغل المحللين السياسيين الاستراتيجيين والاكاديميين والمثقفين خلال العقد الأخير من القرن العشرين وبعده، لكن لم يحدث لا ندوات ولا مؤتمرات الا القليل القليل من النذر اليسير فى كتابات يتيمه سرعان ما تعرضت للتجاهل حينا والاهمال حينا آخر ثم واراها النسيان بينما تتواصل المقالات

بالالاف والندوات بالمئات وتنشغل القنوات والمجلات بفكرة صدام الحضارات التى جاء عرضها فى مقال صحفى يتصف بكل خصائص المقال الصحفى من قصور على مستوى المادة وقصور على مستوى الصياغة فى صيف عام ١٩٩٣، وبعد ذلك فى كتاب يحمل نفس الاسم بعد التأكد من سقوط الاتحاد السوفيتى وسقوط جورباتشوف ومعه البريسترويكا ودخول روسيا مهرولة الى البحث عن مكان فى سوق الليبرالية فى النموذج الغربى .

وفى هذه الورقة نقول - وبكل التواضع - إن الحضارات التى يتحدث عنها البروفيسور صمويل هنتنجتون قديمه موغلة فى القدم فلماذا لم يكتشف تاريخ الحضارات هذا الصراع الذى يتحدث عنه السيد هنتنجتون .

إن أطروحته هذه لو كانت صحيحة فإن ما هو صحيح للحاضر والمستقبل ينبغى أن ينطبق على الماضى كذلك حتى لو كان عامل الحضارة قد احتجب وراء عوامل أخرى فى حقب تاريخية معينه.

إن مصطلح صراع الحضارات لم يكتسب السمعة السيئة إلا فى العقد الأخير ومع كتابات هنتنجتون.

(٣) مغالطة تجمع بين الخديعة والتزوير:

يقرر السيد صمويل هنتنجتون قائلا تقوم فرضيتى على أن المصدر الجوهرى للصراع لن يكون أيديولوجيا أو اقتصاديا بل سيكون حضاريا وأن الصراعات الرئيسة فى السياسة الدولية سوف تنشب بين الدول ومجموعة من الحضارات المختلفة . ولكن الواقع الظاهر للعيان أننا لسنا أمام فرضية كما يقول وكما يريد أن يوهمنا بذلك بل إننا أمام عدد من التأكيدات تتوالى الواحدة تلو الأخرى تقدم فى شكل نبوءة تتدافع تدافع القذائف بدأها بإزاحة فكرة نهاية التاريخ لفوكوياما وهى الفكرة التى تركز وبوضوح على الإقرار الواضح بانتصار الليبرالية الغربية بصورة قاطعة وبالضربة القاضية على الاتحاد السوفيتى والشيوعية ويعنى هذا بالتبعية أنه إذا كان النصر قد تحقق فلن يكون هناك فى المستقبل خصوم وأعداء "للغرب والليبرالية الغربية " التى تقدوها الولايات المتحدة الأمريكية ، وعلى هذا فليس هناك حاجة لتخصيص ميزانيات هائلة للدفاع وبالتالى سيغدو من الصعوبة بمكان - إن لم يكن مستحيلا- إقناع الامريكيين ومجلسهم النيابى والكونجرس بالموافقة على ميزانية وزارة الدفاع المرتفعه جدا وبالتالى سوف تتأثر المصالح الاقتصادية المشتركة بين مجمع الصناعات العسكرية

والشركات الكبرى . وهنا تحرك صمويل هنتنجتون وهو المختص فى الاستراتيجيات ليتصدى بسرعة لأطروحة فوكوياما فى نهاية التاريخ ووأدها فى مهدها باطلاق قذيفة من العيار الثقيل عليها بأطروحة أشد غرابة وأكثر استفزازا للعقل والمنطق والتاريخ وهى "صدام الحضارات ".

إن التاريخ لم ينته بعد وإذا كان خطر الاتحاد السوفيتى والشيوعية قد زال فإن هناك خطرا آخر يدق الابواب ويقرع الآذان وهو الصراع بين الحضارات كطور أخير لحركة النزاعات فى العالم المعاصر . إن هنتنجتون يحول الفرضية التى يطرحها بنوع يمتزج فيه المكر والخداع بجملة من الحقائق لايحتاج تثبيتها - من وجهة نظره- سوى تقديم القليل من الأمثلة الموجزة يتم تسويقها إعلاميا لكى تحل مقام التحليل أو تكفى عن تقديم الدليل.

والأدهى والأمر أن السيد صمويل هنتنجتون بدلا من أن يفى بوعده ويقدم الدليل على فرضيته بأن الصراع فى المستقبل سوف يكون صدام الحضارات قدم بدلا منه فرضا آخر حيث يقول : خلال الحرب الباردة كان العالم ينقسم إلى مجموعات ثلاث : العالم الأول والثانى والثالث ، وإذا كان الثانى قد انحل وتفكك (يقصد الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية فإن العالم الأول (أوروبا الغربية والولايات المتحدة) والعالم الثالث الذى كان مستعمرا من الأول باقيان . وهنا لابد من استخدام منطق العلم فى التحليل والقياس والنقد فنقول للسيد صمويل هنتنجتون إنه إذا كان هناك صراع باق بين العالم الأول (الغرب كما يسميه) والعالم الثالث فإن هذا الصراع ليس ضد الغرب كشعوب وليس ضد الغرب كثقافة وليس ضد الغرب كحضارة ولكنه ضد الغرب كسياسة ، كاستعمار جديد وهيمنة.

إن الحضارة الغربية فى جانبها العلمى والتنظيمى والعمرانى والتكنولوجى مرحب بها ، واستقبلتها الأمم والشعوب الأخرى فى افريقيا وآسيا وبعض بلدان أمريكا اللاتينية بالاقتباس منها والاستفادة من إنجازاتها ولاتزال ، هذا من جانب ومن جانب آخر فإن الحركات الوطنية التى قاومت الاستعمار الاوروبى والهمينة الامريكية كان معظم قادتها وزعمائها ممن تبنوا النموذج الحضارى الاوروبى فكانوا دعاة تحرير وتحديث وتنمية فى وقت واحد ودرس الكثير منهم فى اوروبا الغربية واحتكوا بقادتها وزعمائها وعلمائها ، نذكر منهم على سبيل المثال جواهر لال نهرو فى الهند ومحمد على جناح فى باكستان وأحمد سوكارنو فى إندونيسيا والمهدى بن بركة فى المغرب وأحمد بن بيلا فى الجزائر وسعد زغلول ومصطفى كامل فى مصر وكوامى نكروما فى غانا وباتريس لومومبا فى الكونغو

وأحمد سيكوتورى فى غينيا ونيلسون مانديلا فى جنوب افريقيا ومهاتير محمد من ماليزيا...الخ.

وصدق الباحثون الذين وصفوا صراع الحضارات عند هنتنجتون ومن هم على شاكلته "بالسمعة السيئة والمقاصد الشريرة وهو تعبير نشأ وليد مفردات متنوعة وساعد على تفسير وجود المفردات . تبريرا لسياسات عدوانية أكثر سوءا لافتقاده الشرعية والقانون والعدل والاخلاق والواقع الذى يراه الجميع الآن خير شاعد وأقوى برهان .

إننا لانتبنى نظرية المؤامرة ولكن سنعود مرة اخرى الى استخدام منطق العلم المجرد وأداته التحليل النقدى والقياسى ثم استخراج الدلالة التى تؤدى الى نتيجة ما .

ونسأل صاحب صدام الحضارات أليس التمايز والاختلاف بين الحضارة العربية من جانب والحضارة الفارسية والباكستانية والاندونيسية أقوى وأعمق فى التمايز والاختلاف بين الحضارة الغربية والحضارة السلافية الاورثوذكسية؟ ثم ما هو سبب تجاهله كلية للتمايز والاختلاف الدينى بين المذهب الارثوذكسى من جانب والكاثوليكى والبروتستانتى من جانب آخر؟

وإذا كان الدين هو العنصر الفاعل والأهم فى التمييز بين الحضارات كما يدعى السيد صمويل هنتنجتون فلماذا لم يسم الحضارات باسم الدين وحينئذ تكون هناك الحضارة الاسلامية والحضارة المسيحية والحضارة اليونانية؟ ومما يدل على الخلل والزيف لدى هنتنجتون صاحب فرضية صدام الحضارات أنه لايستعمل الدين كمقياس للتمييز بين الحضارات إلا بالنسبة للدين الاسلامى وحده أما الحضارات الأخرى فإنه ينسبها إلى أشياء اخرى خارج اطار الدين فالكونفوشية ليست دينا بل هى فلسفة اخلاقية وسياسية . وفى الصين فإن الديانه المنتشرة هى البوذية فإذا ما كان الدين هو الاساس فى تصنيف الحضارات فوفق هذا القياس سيتم جمع الهند والصين واليابان تحت اسم حضارة واحدة وهى الحضارة البوذية وهذا مالم يحدث ولن يحدث فلدينا حضارات ثلاث متمايزة الواحدة عن الاخرى الهندية ، الصينيه ، اليابانية .

ثم إن هذا الخلط والخلل الذى تبناه هنتنجتون جعله يقول "إن هناك الغرب فى قمة القوة والسلطة يجابهه بلدان غير غربية تنمو لديها الرغبة والارادة وتتعاظم لديها الموارد والامكانات لكى تتمكن من صياغة العالم وفق نماذج غير غربية .

وهذا التشخيص قريب الى الواقع لكن هنتنجتون لايسمى الاشياء بأسمائها ويدور ويراوغ

روغان الثعالب فى مواجهة الحقيقة وتسميه الاشياء بأسمائها والرجوع الى الاصول التاريخية والموضوعية التى تحددها العلاقة بين مستعمر ومستعمر ، بين مستغل ومستغل بين مدع وصاحب حق.

الاتصال قديم ومتصل من قبل فوكوياما وهنتنجتون. كيف ذلك؟

هاهو الرئيس الامريكى الاسبق ريتشارد نيكسون فى أحد كتبه "انتهزوا الفرصة " يشير إلى أن العالم الاسلامى سوف يمثل اكبر تحديات للسياسة الامريكية فى القرن الواحد والعشرين . هناك أيضا المستشرق الأمريكى الشهير برنارد لويس الذى كتب مقالا فى بداية التسعينات تحدث فيه بإسهاب عن حتمية الصراع بين الاسلام والغرب وأكد على أنهما نقيضان لامجال لحوار بينهما فى مجلة الاطلنطى الشهرية عدد سبتمبر ١٩٩٠ ثم عاد للحديث عن الموضوع نفسه فى مجلة الشؤون الخارجية[١٠]. بعد سبع سنوات من مقاله الأول حيث هاجم بشدة واضحة واستفزاز صريح ما أسماه "بموقف النخب الاسلامية التى تدعو الى التحديث دون التغريب" أى قبول المنتجات المادية للحضارة الغربية وإغفال المضمون الثقافى والقيم المرتبطة به ومايسميه بمقاومة التغريب.

وكأنه مطلوب منا لكى نرضى برنارد لويس وصمويل هنتنجتون ومن معهم أن نتحول الى متفرجين دون رد فعل على الاختراق الثقافى " باسم العولمة " ذلك الاختراق الذى يمارسة الغرب بتخطيط وإصرار ومنهجية مباشرة أو بواسطة من سماهم المفكر المصرى الاستاذ فهمى هويدى بالعملاء الحضاريين ممن ينتمون الى جلدتنا وبنى نحلتنا فى العالم.

نموذج آخر وهو المفكر الامريكى بول كندى فى كتابه الاعداد للقرن الحادى والعشرين نراه يتحامل على المسلمين عموما والعرب منهم خاصة ويصف العالم الاسلامى بالقصور والعجز عن الاستعداد للقرن القادم"الحادى والعشرين " لأسباب عقدية وثقافية ومجتمعية ثم نراه يستخدم الغمز واللمز فى الهجوم على مايسميه بالاسلام المعاصر[١١].

وهنا نلاحظ أن العقل في الغرب (الولايات المتحدة الامريكية وأوروبا الغربية) لايتعامل مع المستقبل من وجهة نظر مستقبلية ولكن من خلال آلية صنع السيناريوهات واستعراض الامكانات المحتملة وتقديم عدد من الفروض التى تخدم مصالحه هو ومنها الحاجة الملحة الى العدو . واستدعت المراهنة الى توجيه الدفة نحو الاسلام والمسلمين واختيار الصراع مع الاسلام[١٢].

وهاهو الباحث الاسبانى ماريانو آغيرا فى دراسة هامة للغاية نشرها فى الدورية الفرنسية العريقة Monde Diplomatique عدد ديسمبر ١٩٩٤ أعطاها عنوان حرب الحضارات جاء فيها أن الغرب عامة والولايات المتحدة الامريكية خاصة اصابته لوثة بالبحث عن عدو جديد يحل محل العدو القديم الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية والشيوعية . إن سقوط الاتحاد السوفيتى ترك فراغا، ويبحث الغرب عن مرشح لملء ذلك الفراغ على حد قوله وأن المرشح الجديد بل والوحيد فى الوقت الحالى هو الاسلام (١٣).

ويستطرد الباحث متسائلا كان العدو السابق طيلة الحرب الباردة من ١٩٤٧ حتى عام ١٩٩٠ محصورا وراء ستار حديدى يصعب أن ينفذ خطره الى الغرب . أما الاسلام فالأمر يختلف فالمسلمون قادمون من افريقيا والشرق الأوسط وآسيا ويجتازون الحدود والمضايق والممرات بل تمتلىء بهم كبريات المدن الاوروبية والامريكية . ولقد ظلمهم الغرب وبخسهم حقوقهم عقودا كثيرة وأخطأ كثيرا فى التعامل معهم ، ناهيك عن عدد من السياسات الخاطئة فى بلدان مثل بريطانيا وأسبانيا وايطاليا فى أوروبا الغربية ، وأكثر من السياسات الخاطئة المعايير المزدوجة التى تمارسها الولايات المتحدة الامريكية . ومن تراكم الخطأ جاء الخطر ولايتعلق الأمر فقط بالتخوف من خطر الحركات الاصولية المتطرفة بل يتجاوزه ليشمل الاسلام من حيث هو دين وحضارة .

والسؤال الذى نطرحه وبقوة لماذا الاسلام والمسلمون ؟ فهاهى اليابان التى نجحت فى اعادة الاعتبار للقيم الاسيوية فى مقابل الحداثة الاوروبية والامريكية التى اعتبرتها غير ملائمة للقارة الصفراء ومن ثم تحصنت للحيلولة دون الوقوع فى ازماتها الاخلاقية والاجتماعية فلماذا لم توصف اليابان والحضارة اليابانية بالجمود والتخلف ؟ ولقد سار فى اتجاه اليابان سنغافورة بقيادة رئيس الوزراء السابق "لى كوان يو" ومثال آخر ، السياسى الكورى "كيم داى يونج" الذى طبق النموذج اليابانى فى بلاده، ثم الصين فالهند ثم فيتنام . وفى الرد وبقوة على الغرب عامة والولايات المتحدة الامريكية خاصة فى تحويل مقولة آسيا من مفهوم بنائى فارغ الى مفهوم بنائى ممتلئ يحتفظ بقيمة وثقافته الاسيوية الشرقية فلماذا لم يحاربه الغرب ؟ والادبيات الاستراتيجية الامريكية ؟ أليس ذلك أمرا مريبا ؟

لا تتردد الادبيات الاستراتيجية الامريكية فى ابداء قلقها وتخوفها من التميز الثقافى اليابانى أو مايسمونه روح الحضارة اليابانية وانعكاساتها على التنمية اليابانية ونجاحها فى صياغة

نمط تنموى حضارى يابانى جديد. وفى هذا الصدد يقول الرئيس الامريكى الاسبق ريتشارد نيكسون فى كتابه "الفرص السانحة" إنه بعد مرور أكثر من خمس وأربعين سنة على التعاون بين الولايات المتحدة الامريكية واليابان إلا أن العلاقات استمرت مليئة بالحواجز النفسية والحواجز الثقافية والشك بالاضافة الى التنافس الاقتصادى الحاد الذى تمثل فى الغزو اليابانى الكبير للسوق الامريكية وكذلك الغزو الامريكى للسوق اليابانية ليس هذا فقط بل أصبحت اليابان تعلن جهارة بأنها لم تعد تقبل الوصاية الامريكية كما أن الولايات المتحدة الامريكية لم تعد تقبل استغلال اليابان لها . وعلى الرغم من ذلك لم ترفع الادبيات الاستراتيجية الامريكية الصدام الحضارى بينها وبين اليابان بالحجم ولا الصيغة الذى رفعته بعض الدوائر والأوساط الاستراتيجية الامريكية مع المسلمين والاسلام عامة والعرب خاصة .

أما عن الصين فلقد تنبأ لها منذ ثلاثين عاما المفكر الفرنسى وزير الثقافة الاسبق آلان بيرفيت فى عهد الرئيس الفرنسى الاسبق جورج بومبيدو فى كتابه القيم "عندما تستيقظ الصين" سوف تتغير الموازين . وهاهى الصين تحقق السيناريو الذى توقعه بالحس العلمى النقدى الرصين "آلان بيرفيت" وتحقق معدل نمو يزيد على ١٠٪ فى نهايات القرن العشرين . هذا البلد ذو الكثافة الديموجرافية العالية أبدع نموذجا اقتصاديا يجمع بين مزايا الديناميكية الرأسمالية والتعاضد الاجتماعى الاشتراكى ويظل كما يقول "لى كيان يو " مستندا للتقاليد الصينية العريقة . ذلك النموذج الذى اصبح مركز جذب لمحيطه الاسيوى فى اقطار مثل كوريا وفيتنام وسنغافورة وفى هذا الصدد يقول الباحث الصينى "لى كيان يو" إن القيم الاسيوية كنمط تحديث وتنمية هى التى تفسر النهضة الصينية الحالية والتى يعم اشعاعها محيطها الحضارى السابق الاشارة اليه والذى ينظر للحضارة الصينية كنموذج وقدوة.

ومرة اخرى تنظر الدوائر الاستراتيجية الامريكية بعين التوجس والقلق الى الحضارة الصينية الصاعدة ، ويتضح ذلك جليا فى رد الفعل الذى احدثه كتاب "الصين يمكن أن تقول لا" الذى صدر فى يونيو ١٩٩٧ ويترجم النزعة المتصاعدة والمتعاظمة أمام الغرب والولايات المتحدة الامريكية ، بل ويدعو الكتاب صراحة الى مواجهة امريكا والغرب من موقع القوة الصينية الجديدة . ومع ذلك فلقد اغمضت الاستراتيجية الامريكية والكونجرس الامريكى العينين. ومرة اخرى نتساءل لماذا لم ترفع الادبيات الاستراتيجية الامريكية الصدام الحضارى بينها وبين الصين؟

وفى السياق ذاته نجد كتابا ينضح بالعدوانية الشديدة والتعصب المقيت للكاتب الفرنسى "كلودبارو" صدر فى مستهل عقد التسعينيات يقول فيه إنه فى الوقت الذى يحتفل فيه الغرب بانهيار الايديولوجيات ونهاية التاريخ ويتحلل الاتحاد السوفيتى وتسقط الشيوعية فإن هناك ايديولوجية قوية تنبثق من اعماق ثلاثة عشر قرنا مضت من التاريخ . إنها دين طازج على حد قوله ويستطرد إنها مفاجأة مذهلة ويرى أن هذا التحدى الجديد يختلف نوعيا عن خط الماركسية التى هى فى نهاية الأمر مظهر من مظاهر الحداثة الغربية رغم انحرافها . أما الاسلام فهو الخطر ، ويستطرد إن قيم الحداثة والعقلانية والفردية وحقوق الانسان مناقضة لقيم الاسلام.

وللأسف الشديد فإن العقل الغربى الاوروبى أو الامريكى لايعرف الاثبات إلا من خلال النفى وبالتالى يتعرف على الأنا من خلال الآخر . وفى هذا الصدد يقول الكاتب المصرى أ. جميل مطر[١٤] إن خطاب صدام الحضارات فى قلب التوجهات الجيوسياسية الامريكية قد انتقل فى الولايات المتحدة الامريكية من النظرية الى الممارسة العينية كما توضح مؤشرات عديدة من بينها المواقف المتشددة للكونجرس الأمريكى فى الآونة الأخيرة ومظاهر الغطرسة والتصعيد فى بعض دوائر الادارة الامريكية الحالية سواء من كبار المسئولين أو كتابات اقلام عديدة فى مراكز صنع القرار[١٥].

ومارصدناه لبعض نماذج تبرز ظاهرة الاحتماء بالهويات الثقافية والحضارية فى عدة أماكن منها بعض دول المركز فى الاتحاد الاوروبى (فرنسا وألمانيا ومعهم بعض الدول الاسكندنافية) ، اليابان، الصين ، الهند فى مقابل حركة عولمة متنامية تتخذ صيغة تغريب متأمرك ذى طابع قسرى ملىء بالعدوانية والاستعلاء.

فماذا نحن فاعلون ...[١٦-١٧-١٨-١٩-٢٠-٢١].

الأنا والآخر والعولمة :

مما لاشك فيه أن هناك فرقا بين التاريخ والوعى بالتاريخ . فالتاريخ ليس زمنا أو عصورا أو سنوات طبقا لدروات الافلاك فذلك هو زمان الحساب أما الوعى بالتاريخ فهو الزمان الشعورى فيه الجدابة او الخصوبة فيه الانفرادية او التفاعل والايجابية فيه العدل أو الظلم والاستبداد.

وإذا أخذنا مثال الهوية الثقافية والعولمة، الخصوصية والعالمية، المحلى والكونى فإننا نجد أنها تعبر عن ثنائية أعمق، ثنائية الأنا والآخر . وعادة ما يكون الأنا هو الذى يدافع عن هويته الثقافية

وخصوصيته المحلية فى مواجهة الآخر الذى يتحد مع العولمة والعالمية والكونية[٢٢-٢٣-٢٤].

العلاقة بين الطرفين الأنا والآخر تعبر عن أزمة وجودية تاريخية . علاقة غير متكافئة بين خصمين وليست علاقة متكافئة بين ندين . فيها مزيج من مركب النقص مقابل مركب العظمة . فيها القاهر والمقهور ، المستعمر والمستعمر.

المثقف العربى لايستطيع أن يجردها بدعوى الموضوعية والحياد لأنه جزء منها وطرف فيها . والمخرج هو الاحتكام الى أدبيات علم الاجتماع والانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية ، وعلم السياسة وعلم التاريخ [٢٥-٢٦-٢٧-٢٨-٢٩].

المثقف العربى يتجه الى الانا لكى يدافع عن هويته فى مواجهة طوفان العولمة الكاسح حاملا معه بذور التغريب والتبعية الثقافية والهيمنه الحضارية .

وإذا كان الأنا لديه مكنون متراكم من الثراء الثقافى والثراء الروحى والثراء الحضارى والتسامح فإن ذلك قد يكشف عن عمق الأزمة وصدقها فى نفس الوقت فى علاقة الأنا بالآخر . ومنهج تحليل المضمون يساعدنا فى ذلك.

الأنا يدافع عن هويته الثقافية والاجتماعية فى مواجهة التغريب والهيمنة الحضارية والتبعية .

والمسائل الثلاث السابقة والتى تشكل اضلاع المثلث الكبير وهى (التغريب، الهيمنه الحضارية والتبعية) هى العولمة فى شكلها الجديد[٢٢-٢٣-٢٤-٢٥-٢٦].

إن الآخر الذى أفرز أشكالا جديدة للهيمنة عن طريق ابتكار مفاهيم جديدة وزرعها خارج حدوده، منها النظام الاقتصادى العالمى الجديد ثم النظام العالمى الجديد ، العالم ذو القطب الواحد، نهاية التاريخ ، صدام الحضارات ، العالم قرية كونية واحدة ، ثورة الاتصالات انتهاء بالعولمة.

والأنا : الغالبية العظمى فى البلدان النامية المسماة بالعالم الثالث والرابع والخامس ومادون ذلك يلهث وراء الآخر بالشرح والتفسير والتعليق وأحيانا التبرير دون أن يدرك أن المقصود به ليس الدخول الى القرية الكونية الواحدة بل الخروج من التاريخ، أن يظل فى مرحلة التقليد فى الاطراف وترك الابداع للمركز وحده وإحكام السيطرة على العالم بأسره باسم العالم "العولمة ولصالح المركز (الولايات المتحدة الامريكية وأوروبا الغربية أو مجموعة الاتحاد الاوروبى) وأصبح كل من يدافع عن

الخصوصية والعقيدة والدين والتاريخ والاصالة والهوية المجتمعية والثقافية والتراث الحضارى رجعيا، أصوليا ، متخلفا ، عربيا ، سلفيا، ماضويا ..[٢٧-٢٨-٢٩-٣٠-٣١].

إن مخاطر الاخر على الأنا والقادمة من العولمة تبدو فى السطح ظاهرة على الهوية الثقافية ولكن الاخطر هو ماتحت السطح وهى المخاطر على الدولة الوطنية ارادتها ... ثقافتها ... استقلالها.

العولمة تعنى تبعية الاطراف للمركز ، تجميعا لقوى المركز وتفتيتا لقوى الاطراف . تقذف العولمة على الدولة الوطنية فى الاطراف مفاهيم جديدة اشبه بالسوط على ظهر من لايدخل الى بيت الطاعة الجديد فى النظام العالمى وطاعة سيدة العولمة : حقوق الانسان، حقوق الاقليات، الحريات ، حقوق المرأة وقوى الدعم الغربى لمراكز حقوق الانسان بالمفهوم الغربى الفورى دون مراعاة واحترام لحقوق المواطن والمواطنة وحقوق الشعوب . وبدأ طوفان فى البحوث عن الاقليات العرقية والطائفية واظهار اهمية خصوصياتها والتعدديات الثقافية من أجل القضاء على وحدة الثقافة ووحدة البناء الاجتماعى ووحدة الوطن ووحدة الجغرافيا ، ووحدة التاريخ ووحدة المصير وبدأ ايجاد أو اختراع عدو وهمى للمرأة هو الرجل الذى هو إما ، أب أو أخ أو زوج وكلاهما ضحية لعدو مشترك هو ماتسببه العولمة من ظلم وقهر وفقر واستعباد. كل ذلك لكى تفتح الدول أبوابها اقتصاديا وسياسيا وتترك كل شىء لحرية السوق وقوانين العرض والطلب من اجل تصريف الفائض الاقتصادى للدول الصناعية الكبرى فيما يسمى بالعالم الأول الولايات المتحدة الامريكية وأوروبا الغربية راعية العولمة ولا بأس ولا ضرر فى أن تنكمش الصناعات الوطنية أو تذبل وتصبح الدول الوطنية فى معظمها إن لم يكن كلها أسواقا حرة مفتوحة مثل تايوان وهونج كونج ومن لا يقدر على العيش فى حلبة المنافسة عليه الانسحاب والانزواء فى الظل او الهامش والخروج من حركة التاريخ الى متاحفه [٣٠].

شيئا فشيئا وتحت طوفان الغزو الاعلامى الكاسح والانبهار بالآخر وثقافته ومع تأثير التقليد يتم استعمال طرق تفكيره كاطار مرجعى للحكم وإهمال النقد وإضعاف المراجعة . وشيئا فشيئا تتبنى ثقافة الاطراف معايير المركز وأحكامه مثل ثنائيات الحس والعقل وتعارض المثالية والواقعية والفصل بين الدين والدولة وتعارض الدين والعلم ، والانقطاع عن الجذور، والتراث بدعوى التحديث حينا والمعاصرة حينا آخر ولا بأس مع العولمة الانقطاع عن الأصالة والقديم أى الخروج من دائرة التاريخ وباسم الانفتاح والتنوير ينشق الصف الوطنى إلى فريقين العلمانية والسلفية كل يتربص بالآخر كما حدث فى الجزائر حيث تردت الامور الى حد سفك الدماء للنساء وللاطفال والشيوخ وكما هو الحال فى

مصر بدرجة اقل وفى باقى ارجاء الوطن العربى بدرجات متفاوتة (٣١-٣٢).

وماذا بعد؟

من الصعوبة بمكان إن لم يكن مستحيلا أن يدافع الأنا عن نفسه ضد طوفان العولمة باعطائها ظهره والانغلاق على الذات ورفض الاخر كلية ، لأن ذلك يعتبر من قبيل تصحيح الخطأ بالخطأ ، وفى ذلك ضرر فى التعامل مع مشكلات العولمة ولايعتبر حلا.

إن الواقع المحيط بالأنا من قبل الآخر ملىء بمتغيرات العصر وتناقضاته من النصر الى الهزيمة ، ومن الابداع الى النقل .

وما الحل ؟

فى تقديرى الموضوعى أن العودة الى الخصوصية جزء رئيس من الحل عن طريق قنوات التجديد المشروعة حيث لاتعنى الخصوصية الانغلاق والتقليد والانكفاء على الذات واستبعاد الآخر والخوف من متغيرات العصر.

لابد من البداية بالأنا قبل الآخر ، وبالقريب قبل البعيد ، وبالاصالة قبل المعاصرة والموروث قبل الوافد كما فعلت اجيال الرواد من الاباء والاجداد ومنذ القرن الاول الهجرى عند تأسيس علم الاصول ثم نهضة الترجمة فى القرن الثانى وإعمال العقل فيها مع النقد. على الأنا الدفاع عن خصوصية الثقافة أمام الآخر وكسر حدة الانبهار بالغرب وكسر حاجز الخوف من غول العولمة ومقاومة قوة جذب الآخر برده الى حدوده الطبيعية.

لابد للأنا أن يصرخ فى وجه الآخر وبقوة ويسأله بحدة وصوت عال لماذا يطبق الآخر مناهج علم اجتماع المعرفة والانثروبولوجيا الثقافية على ثقافات الغير ويستثنى نفسه من آليات هذه المناهج؟

لماذا المعايير المزدوجه : قيم الحرية والتنوير داخل الآخر (الغرب) ونقيضها خارجه (الأنا) ، الحرية والديموقراطية والعقل والعلم والتنوير والتقدم والمساواة لدى الآخر (الغرب) والقهر والتسلط والخرافة والظلم الاجتماعى خارج دائرته فى الاطراف عند الأنا ؟

ألا يمكن أن يكون الناقد منقودا ، والدارس مدروسا ، والملاحظ المراقب ملاحظا ومراقبا يخضع للمسائلة والمحاسبة بالثواب والعقاب؟

واجب الأنا اليوم قبل الغد أن تخرج من دوامة عقدة الخوف من الآخر ويكون لها مشروعها المعرفى المستقبلى . على الأنا أن يعيد التوازن لحوار الثقافات وليس صراع الحضارات والنظر إلى التاريخ بطريقة أكثر عدلا وإنصافا.

فنهاية التاريخ خرافة ، وصراع الحضارات أكذوبة وادعاء باطل يكذبه التاريخ حتى تاريخ الغرب نفسه فتاريخ الانسانية ككل أوسع رحابة فى أن يختصر فى تاريخ الغرب الحديث ، والتاريخ أكثر عمقا من أن يجزأ أو يبتسر بل ويزور فى عصر العولمة .

لابد للأنا من أن يستفيد من جزيئات وحداته فى كافة ارجاء الوطن العربى فى الخليج العربى، وقلبه المملكة العربية السعودية بلاد الحرمين الشريفين، والمشرق العربى، ونقطتى الارتكاز فيه مصر وسوريا، والمغرب العربى والسودان والعراق ويبدأ على الفور مشروعا للنهضة يرتكز على الابداع ويعتمد على التفاعل مع الماضى والحاضر لصياغة المستقبل ، ويستعيد الثقة بنفسه ثقة الأنا بذاتها والتحرر من الانبهار بالآخر أو الخوف منه ، على الأنا أن يستحضر الماضى والمستقبل فى الحاضر والله سبحانه وتعالى غالب على أمره.

إعادة بناء الذات قبل الدفاع عنها :

إن أصحاب الثقافات الاصلية التى تضرب بجذورها فى اعماق التاريخ وثقافتنا العربية التى امتصت واستوعبت وانجزت مشروعا حضاريا عربيا اسلاميا وفى عصور النهضة والازدهار احداها وعليها أن تتخلى عن مواقف الدفاع التقليدية وتتبنى مواقف جديدة تعتمد على الثقة بالذات (بالأنا) وعدم الخوف من العولمة أو من الآخر(الغرب) علينا أن نبحث عن أوجه القصور فى عدد من الانساق الاجتماعية والثقافية واختراق الهامشية وكسر آليات التبعية ونستعيد ما أنجزه أجدادنا ذات يوم فى المشاركة الفعلية والفعالة فى جهود بناء الحضارة الانسانية.

علينا أن ننتقل وبسرعة من حالة الزبون للغرب المستهلك دائما الى حالة الباحث التلميذ الذى يدرس ويتأمل ويستوعب ويمتص ليبدع.

إن هدفنا العلمى والواقعى يفرض علينا الخروج من الهامشية الى الفعل، والمشاركة مع بقية الثقافات الانسانية الحية والفاعلة .. والعمل الدءوب على كسر اسس السيطرة الاحادية للعولمة وتعزيز اطار التعددية الثقافية الكونية فى اطار حقيقى من الاحترام والتعاون المتبادل والتفاعل

الخلاق. والاعتراف بجوانب القصور والضعف لدينا هو البداية لبلورة حلول مبدعة وعقلانية وجديدة لمشاكلنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية والثقافية وهى المنطلق لتكوين موقف عربى واضح ضد الهيمنة الثقافية للعولمة، ويبدأ ذلك باعادة بناء الذات الأنا قبل الدفاع عنها فى مواجهة الآخر . المطلوب الخروج من دائرة العزف على الماضى واجترار المزايا والتشهير بالخصوم نحن بحاجة الى ماهو اكبر ، الى العقل وعدم التسليم بهامشيتنا وامتلاك الوعى بغول السيطرة الثقافية والحضارية للعولمة والتعامل مع هذا الغول من مستوى الندية ، وامتلاك آليات فرص الابداع وابتكار حلول جديدة لمشاكلنا تكون بعيدة عن تقليد الآخر . لابد من الخروج من دائرة الصراع ضد غول العولمة ولاندع الخوف يسيطر علينا ويحتل نفوسنا حتى لا يكتم انفاسنا . فهذا الوعى النفسى والعقلى هو الذى يساعدنا على ادراك نسبية الصراع ويساعدنا على إنجاز القدر المناسب من استقلالية الأنا عن الآخر حتى نتمكن من ابتكار الحلول المناسبة لإعادة التوازن تمهيدا للفعل الاصيل الذى يحفظ الحصانة ضد سيطرة الآخر.

وأكرر مرة أخرى أن الله سبحانه وتعالى غالب على أمره.

الهوامش :

١- مجدى حماد **"اثر المتغيرات العالمية على قضية الوحدة العربية"** - الفكر السياسى- دمشق-اتحاد الكتاب العرب، العدد الثالث ١٩٩٨، ص٣٣٠-٣٥٦.

٢- **العرب والعولمة** " تحرير د.اسامة الخولى - مركز دراسات الوحدة العربية .

3- S.H.The clash of civilization-**Foreign Affairs, 1993**. Sammuel Huntington , **"The clash of civilization and the remarking of world order "**, New York , Simon and Shueter, 1996.

٤- ص.هـ. **المصدر السابق**، ص ١٤ و ١٥ و ١٦ S.H

٥- وجيه كوثرانى . **"صدام حضارات أم ادارة أزمات"** مركز دراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق . بيروت ١٩٩٥ ص ١٠١ ومابعدها.

6- Francis Fuku Yama "The End of History" **The National Interest 16, Summer 1989.**

٧- ف فوكويا ما **(المصدر السابق)** .

8- Samuel P. Huntington" The Clash of civilization?" **Foreign**

Affairs, Vol 72, No. 3,Summer 1993

9- Deanne Julius Globalization and stakeholder Conflicts A cooperate perspective , **International Affairs Vol 73, No 3, 1997,** P 453,454,455.

10- Bernard Lewis " The West and the middle east. Foreign **Affairs - 1-2 1997 PP.** 114-135

١١- بول كيندى" **الاستعداد للقرن الواحد والعشرين**" -ترجمة محمد عبد القادر وغازى مسعود - دار الشروق - عمان ١٩٩٣ ص ٢٦٠-٢٦٦.

١٢- ريتشارد نيكسون "الفرص السانحة " ترجمة أحمد صديق مراد دار الهلال-القاهرة ١٩٩٢ ص ١٠٩-١١٠-١١١.

13- J.C Bureau **D"Islam en general et du monde Moderne Particulier Le pre au clercs,** Paris 1991, P.12,13,14.

١٤- جميل مطر - **صدام الحضارات من النظرية الى الممارسة فى السياسة الامريكية** - الحياة ابريل ١٩٩٧.

١٥- نقلا عن : عبد الحى يحيى زلوم ، **نذر العولمة** ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٦٥.

١٦- الشاذلى العيارى، الوطن العربى وظاهرة العولمة (الوهم والحقيقة) **مجلة المنتدى ، العدد ١٤٥ ، تشرين أول ١٩٩٧** ، عمان ، ص ١٤.

١٧- على أحمد عتيقة - الأقطار العربية ومستجدات السبعة - **مجلة المنتدى العدد١٤٢- تشرين الثانى ١٩٩٧** ، عمان ، ص ٤.

١٨- دراسة أنتونى ماكفروا - تأصيل الدراسات الكونية - ذكره السيد يسين - فى مفهوم العولمة - **مجلة المستقبل العربى - العدد ٢٢٨-١٩٩٨** - مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ص ٦.

١٩- محمود محيى الدين - الكوكبة والحقوق الاقتصادية - مجلة القضايا وحقوق الانسان، **المصدر السابق** ، ص ٣١.

٢٠- محمود جواد رضا - الرمال العربية المتحركة وشروط الدخول فى القرن الواحد والعشرين

- **مجلة المنتدى - العدد ١٤٦ ، ١٩٩٧** ، عمان ، ص ٦.

٢١- على حسين الجابرى ، **اللاعقلانية فى العولمة ، العولمة والمستقبل ، سلسلة المائدة الحرة، العدد ٣٧** ، بيت الحكمة بغداد ، ١٩٩٩ ، ص ٩.

٢٢- أنظر بهذا المعنى ، العولمة والهوية الثقافية - مجلة المستقبل العربى- **المصدر السابق** - ١٨٥.

٢٣- جلال أمين - العولمة والدولة - **مجلة المستقبل العرب**D ، مركز دراسات الوحدة العربية العدد ٢٨ بيروت ، ص ٩٨.

٢٤- أنظر جاك ماريتان - **الفرد والدولة** - ترجمة د. صالح الشماع - منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٢ - ص ٢٢٣-٢٢٤.

٢٥- د. محمود عابد الجابرى - **العولمة والهوية الثقافية** - ص ١٤.

٢٦- **المصدر نفسه** ص ١٤-١٥.

٢٧- **المصدر نفسه** ص ١٦-١٧.

٢٨- **المصدر نفسه** ص ٢٠.

٢٩- جاك أتالى - **آفاق المستقبل** - تعريب د. محمد زكريا إسماعيل - دار العلم للملايين - طبعة ٢ ، بيروت ، ١٩٩٢ - ص ١٧٢.

٣٠- دنيس لويد - **فكرة القانون** - ترجمة سليم الصويص - **سلسلة عالم المعرفة**، الكويت، ١٩٨١ ، ص ١١٣-١١٤.

٣١- د. جون ب ديكنسون - **العلم والمستغلون بالبحث العلمى فى المجتمع الحديث** - ترجمة شعبة الترجمة باليونسكو - سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٨٧ ، ص ٢٥٦.

٣٢- د. محمود عزيز شكرى - **التنظيم الدولى العالمى بين النظرية والواقع** - طبعة ١ ، دار الفكر ١٩٧٣ - القاهرة - ص ٣٠١-٣٠٢ .